بين حوار الحياة وحوار العقيدة

أسعد الياس قطّان

لقد اصطلح المشتغلون بالحوار الإسلاميّ-المسيحيّ على التمييز بين حوار العقيدة، الذي يسمّيه بعضهم «حوار الحقيقة»، وحوار الحياة. قوّة حوار الحياة تكمن في أنّه ينطلق من خبرات الناس في معيشهم اليوميّ، وهو غالباً ما يستطيع الاستغناء عن التأسيس النظريّ. معظم البشر، مثلاً، لديهم حسّ يكاد يكون فطريّاً بضرورة السلام بين البشر وضرورة ارتباطه بالعدالة والمساواة. لا يحتاج المسيحيّون والمسلمون إلى العقيدة الدينيّة كي يتعاونوا بعضهم مع بعض في سبيل صنع السلام وإحقاق العدالة وتكريس المساواة بين البشر. نحن هنا أمام مقاربة استقرائيّة (inductive) تنطلق من الخاصّ إلى العامّ. الخاصّ هو إحساس كُثُر بضرورة أن يكون هناك مقاربة «خلقيّة» مشتركة في الأمور الكبرى. هذا لا يعني أنّهم ينتسبون إلى أخلاق متطابقة في كلّ شيء. لكنّه يشير إلى تقاطعهم في المنطلقات الخلقيّة الأساسيّة: عدم الاعتداء على الآخرين وضرورة معاملتهم على قاعدة الرحمة، نبذ منطق الحرب والسعي إلى مجتمعات أكثر سلاماً، العمل أن تتحقّق في هذه المجتمعات أعلى درجة من درجات العدالة والمساواة، بما يضمن الاستقرار ويحمي من الاستقطابات المدمّرة. حتّى الذين ينتمون إلى المسيحيّة والإسلام انتماءً شبه ثقافيّ فقط، ولا يعتبرون أنفسهم متديّنين، يستطيعون أن يمارسوا حوار الحياة هذا. من البديهيّ أنّ هذا غيض من فيض، إذ ثمّة مجالات أخرى كثيرة يلتقي فيها المسيحيّون والمسلمون على نحو تلقائيٍّ في ديناميّة يمكن أن نعتبرها جزءاً لا يتجزّأ من حوار الحياة: في النضال ضدّ الفساد السياسيّ، في العمل النقابيّ المشترك، في صناعة الفنّ والثقافة على وجه العموم، في الحبّ وشركة الزواج إلخ. وإذا كان المنخرطون في حوار الحياة ذوي اهتمام فلسفيّ ولاهوتيّ، فإنّ هذا الحوار كثيراً ما يزوّدهم بالطاقة والأدوات المعرفيّة كي ينكبّوا على تطوير مقاربات فكريّة جديدة توسّع مساحة التلاقي بين المسيحيّة والإسلام في الشؤون المختصّة بالعقيدة.

من حيث العقيدة، ليس الإسلام والمسيحيّة بدينَين «محايدين». فمن الواضح أنّ ثمّة مسيحيّةً ما ينتقدها كتاب المسلمين المقدّس. بهذا المعنى، الإسلام يعتبر ذاته تصحيحيّاً للمسيحيّة ولما تنطوي عليه من «مغالاة» في تأويل صورة الله (الثالوث) وشخص المسيح. هذه المقاربة من جهة الإسلام استدعت أن يضطرّ المسيحيّون عبر التاريخ إلى الدفاع عن أنفسهم مشدّدين على أنّهم موحّدون، وأنّ قراءتهم لشخص المسيح تنسجم مع هذا التوحيد. بخلاف بعض التيّارات التي نشأت في القرن العشرين، لم يعتبر المدافعون المسيحيّون أنّ المسيحيّة التي يتكلّم عليها القرآن الكريم هي غير مسيحيّتهم، أو أنّها مجرّد هرطقة مسيحيّة كانت قائمةً ذات يوم في الجزيرة العربيّة، لكنّها اندثرت واختفت. ولعلّهم على حقّ في ذلك. فثمّة نصوص قرآنيّة، كسورة الإخلاص مثلاً، توحي بأنّها توجّه نقداً مباشراً للتعليم المسيحيّ الرسميّ الذي ساد منذ مجمع نيقية (٣٢٥): «لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤاً أحد».

المسيحيّة والإسلام، إذاً، ليسا محايدين لكونهما يختزنان تاريخاً طويلاً من الصراع، من الجدل، من الأخذ والردّ، من الدفاع والدفاع المضادّ. حيال ذلك، من الطبيعيّ بمكان أن يُطرح السؤال عن مدى قدرة الديانتين على التقارب في مجال العقيدة. هذا التقارب لا يعني التطابق بطبيعة الحال، بل يعني توسيع المساحة المشتركة، أو، كما ذهب إليه أحد المهتمّين بالحوار بين الديانتين، هو يحيلنا على «تحسين نوعيّة الاختلاف».

يخيّل للدارس أنّ هذا التقارب ممكن في مجالين على الأقلّ: بالنسبة إلى المسلمين، في توصّلهم إلى القطع مع معظم تقليدهم التفسيريّ القائل بأنّ الذي مات على الصليب لم يكن يسوع الناصريّ، أو عيسى بن مريم، بل هو شخص آخر. الاعتراف بتاريخيّة موت المسيح على الصليب لا يستتبع، بطبيعة الحال، قبول ما يقوله المسيحيّون عن البعد اللاهوتيّ، والخلاصيّ تحديداً، لهذا الموت. لكنّه، ولا شكّ، سيؤدّي إلى مزيد من التقارب بين المسيحيّين والمسلمين إذا هم التقوا على سرديّة مشتركة لما جرى على الصليب، ولا سيّما أنّ النصّ القرآنيّ «وما قتلوه ولا صلبوه، ولكن شُبّه لهم» ملتبس وحمّال أوجه بشهادة كثر من علماء الإسلام ومفسّريه. في المقابل، المسيحيّون مطالبون بأن يعيدوا التفكير في مدى قدرتهم على بلورة مقاربة لاهوتيّة تعترف بنبوّة محمّد بن عبد الله، رسول الإسلام. بالرجوع إلى أدبيّات المسيحيّين في العصور الغابرة، يستوقفنا موقف تيموثاوس الجاثليق، بطريرك كنيسة الشرق، الذي اعتبر في حواره مع الخليفة المهدي أنّ محمّداً «سلك في طريق الأنبياء»، وذلك من دون أن يعترف به نبيّاً. من جهة أخرى، يسبغ بولس الأنطاكيّ، مطران صيدا الملكيّ، الذي عاش على الأرجح في مطلع القرن الثالث عشر، صفة الرسول على نبيّ الإسلام، لكنّه يعتبر أنّ رسوليّته تنحصر في «الجاهليّة من العرب»، ولا تتّصف بسمة العالميّة. السؤال المطروح، إذاً، هو: هل في مقدور اللاهوتيّين المسيحيّين أن يبنوا على مواقف «تقليديّة» من هذا النوع كي يطوّروا مقاربةً جديدةً إلى نبيّ الإسلام تعترف بنبويّته حتّى لو لم تتبنَّ تعاليمه كافّةً؟ أفلا يكون هذا يشبه، إلى حدّ بعيد، حال عدد من أنبياء العهد القديم يعترف المسيحيّون بكونهم أنبياء ذوي دور في مخطّط الله الخلاصيّ من دون أن يعتنقوا تعاليمهم كلّها أو يوافقوا على أفعالهم جميعها؟

إنّها، ولا شكّ، أسئلة مهمّة برسم الحوار اللاهوتيّ الجادّ والخلّاق. لكنّها، على الأغلب، أسئلة ما كانت لتُطرح لولا التقارب الواضح الذي حقّقه كُثُر من المسيحيّين والمسلمين في خضمّ حوار الحياة. إذا كانت هذه الملاحظة صحيحة، يكون التلاقح بين هذين الحوارَين أعمق أثراً وأبعد غوراً ممّا نتصوّره للوهلة الأولى. وإنّ في هذا لأمثولةً عظيمة.